

التقسيم الاستشراقي للعصور الأدبية بين القبول والرفض

The Orientalist Division of Literary Periods Between Acceptance and Rejection

خليل بن ناصر*

حاج بنيرد

جامعة مولود معمري تيزي وزو

جامعة مولود معمري تيزي وزو

Khalil.bennesser@umt.dzHadj.benired@umt.dz

تاريخ الإرسال: 2025-01-27

تاريخ القبول: 2025-12-21

ملخص:

إن من أبرز القضايا التي خاضتها الحركة الاستشراقية في أثناء تأريخها للأدب العربي منذ نشأته إلى غاية نضجه واستوائه، قضية التقسيم الزمني للعصور الأدبية، هذا التقسيم الذي لازم الحركة التأليفية الغربية والعربية، إلى الحد الذي أصبح فيه منهجا في التأليف يسلكه كل من يبتغي إلى ذلك سبيلا، هذا المنهج الذي نراه يعلي من شأن القراءة التاريخية ويمجدها وينسبها في كل مرة لعوامل خارجة عنه، كالعوامل السياسية والاجتماعية وغيرها، مما جعله يؤثر على الحركة الأدبية تأثيرا مباشرا وفعلا لازلنا نحصد نتائجه إلى اليوم.

الكلمات المفتاحية: حركة استشراقية؛ تقسيم زمني؛ عصور أدبية؛ قراءة تاريخية

Abstract:

One of the most prominent issues tackled by the Orientalist movement in its historiography of Arabic literature, from its inception to its maturity and consolidation, is the issue of the chronological division of literary eras. This division accompanied both Western and Arab authorship movements to the extent that it became a methodology in writing followed by anyone seeking that path. This methodology elevates the status of historical reading, glorifies it, and attributes it each time to external factors such as political, social, and other influences, which caused it to have a direct and effective impact on the literary movement, the results of which we still reap today.

Keywords: Orientalist movement; chronological division; literary eras; historical reading

مما لا شك فيه أن الناظر في تاريخ الأدب العربي عبر مساره الطويل بدءاً من مرحلة ما قبل الإسلام إلى عصر النهضة الحديثة، سيكتشف عدداً من التحولات التي مست الحركة الأدبية في كثير من الجوانب الشكلية والموضوعية على حد سواء، مما يستتبع على كل باحث في هذا التاريخ الطويل دراسة مراحلها، ونشأته، وتطوره إلى غاية وصوله مرحلة الاستواء والنضج، دون تقسيمه إلى عصور يحمل كل واحد منها اسماً، وله تاريخ ولادة كما يملك تاريخ وفاء.

وإن منهج التقسيم هذا الذي ظهر مع الحركة التأليفية التي خاضها المستشرقون طيلة قرون من الزمن، قد أثر بشكل كبير في توجيه وعينا النقدي تلك الوجهة التي أصبحنا نحكم من خلالها على عصر برُمته انطلاقاً من تسميته، أو انطلاقاً من تقلباته السياسية والاجتماعية، دون مراعاة الشروط الأخرى لتكوين ذلك العصر ومتطلباته الإبداعية.

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة استظهار بنية هذا التقسيم، وأبرز أسبابه وانعكاساته على الحركة التأليفية العربية التي دانت لهذا التقسيم، كما يحاول هذا المقال التعمق في أغوار هذه القضية، انطلاقاً من طرحه لمجموعة من التساؤلات، تصب كلها في إشكالية جوهرية واحدة، وهي: على أي أساس بني هذا التقسيم؟ وماهي أسبابه ودوافعه الحقيقية؟ وهل كان المؤلفون العرب على وعي بتبعات هذا التقسيم، أم هو خطيئة منهجية لا بديل عنها؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا على المنهج النقدي التحليلي، مبرزين بوساطته بنية هذا التقسيم لدى المستشرقين وانعكاساته على الأدب العربي.

1/ تقسيم العصور الأدبية: مصدرها ومنهجها وأهم روادها:

نحاول في هذا المبحث التطرق إلى مصادر هذا التقسيم، هل هو غربي أم عربي؟ والتعرف على المنهج المتبع فيه، وهل هو صالح للتطبيق على تاريخنا العربي؟ وهو ما سنتعرف إليه في أثناء تسليط الضوء على أبرز المنادين به سواء من الثقافة الغربية أو حتى العربية.

1.1- مصدرها:

إن قضية تقسيم العصور الأدبية هي من أبرز القضايا ذات الصلة بتاريخ الأدب العربي، ولم يُنْتَبِه إلى هذه القضية إلا في العصر الحديث مع ثُلَّة قليلة من الكُتّاب الذين أَرَّخوا لتاريخ الأدب العربي في مؤلفاتهم، نجد من بين هؤلاء الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) حيث يقول: "وأول من ابتدع هذا التقسيم، المستشرقون من علماء أوروبا، قياساً على أوضاع آدابهم مما يسمونه literature فهم الذين تنبها لهذا الوضع في العربية، فجاءوا به كالمهمة على فرط عنايتهم بفنونها وآدابها، وحسبهم من ذلك صنيعاً."¹

ثم نراه يذكر أن هذا التقسيم كان سبباً رئيسياً في توالي ظهور عدد كبير من المؤلفات التي تحمل عنوان تاريخ الأدب العربي، حيث يقول: "وعلى هذا السبيل وضعت الكتب في تاريخ أدبيات اللغة العربية ، فقد تصوروا حدوداً معينة من الزمن ، لا يلبث أحدهم أن يمد إليها قلمه حتى يتجاوزها ويكاد يؤرخ ما في الغيب أيضاً ..."² بالرجوع إلى ما ذكره الرافعي يتبين لنا أن التقسيم الزمني لتاريخ الأدب العربي كان تقسيماً استشرافياً بحثاً ، وهو ما أشار إليه الرافعي في مستهل حديثه عنهم، حيث اتخذ منهم موقفاً سلبياً مناقشاً أخطاءهم في التأليف يقول: "إن صنيع أولئك المستشرقين وهؤلاء المستغربين لا يعتبر في حقيقة الأمر إلا توسعاً من ضيق ، وتوفيراً من قلة ، إغراقاً في الحشد والاجتلاب ؛ ...ولهذا بقي تاريخ آداب العرب محتاجاً إلى طريقة أخرى ، لا يختصر فيها الزمن بسرعة النقل ، ولا يرفه على الفكر بهذا الاضطراب الرياضي في وثوبه بين الكتب ، ولا يستر فيها قبح التأليف بحسن التقسيم"³

على هذا الأساس ابتدع الرافعي طريقة جديدة في التأريخ للأدب العربي يخالف بها مذهب المستشرقين وغيرهم من المؤلفين العرب الذين ساروا على نهجهم ، والمطلع على كتابه (تاريخ آداب العرب) يجد أن الرافعي قد قسم كتابه هذا إلى ثلاثة مجلدات ، كل مجلد يضم أبواباً ، وقسم كل باب منها إلى جزأين ، فأما الباب الأول مثلاً فقد وسمه باللغات

¹ مصطفى صادق الرافعي، (1421_2000)، تاريخ آداب العرب، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت

لبنان، ص13.

² المرجع نفسه، ص 14

³ المرجع نفسه، ص 17

واللغة العربية، وتندرج تحته مجموعة من العناوين المختلفة، ثم الباب الثاني بعنوان الرواية والرواة، وهكذا أي أنه لم يقسم كتابه بمقتضى العصور وإنما حسب الموضوعات، وهذا واضح من خلال قوله: "ولذلك رأينا الطريق المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث هي معاني الجوادث لا على العصور، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون"⁴، وهو مذهب جديد خالف به الرافعي مذهب المستشرقين بعدما تنبه إلى خطورة ذلك التقسيم القائم على الأساس التاريخي، الذي يسعى إلى إقامة فواصل في تاريخ الأدب العربي، وهي في حقيقتها فواصل وهمية، فإن صلحت أن تكون تقسيمات سياسية، فهي غير صالحة أن تكون تقسيمات أدبية.

2.1- منهجها:

قبل التعمق في حيثيات هذه الظاهرة وأهم روادها عند المستشرقين والعرب، لا بد من مناقشة قضية المنهج الذي طبقه المستشرقون على تاريخ الأدب العربي، لأنه المنطلق الأول الذي أباح هذا التقسيم، فقد "غلب منهج التقسيم إلى عصور على تاريخ الأدب حتى صار مألوفاً لدينا أن نرى الكتاب يديمون العمل به شرقاً وغرباً. فمنذ أن وضع أندري دوشيسن (André Duchesne) كتابه تاريخ فرنسا الأدبي سنة 1733 منتحياً هذا المنهج، ومعظم المؤرخين يأخذون بطريقة التقسيم الزمني في أعمالهم الواحد بعد الآخر"⁵، هذا ما أشار إليه الرافعي حينما قال إن المستشرقين قد أخذوا بهذا التقسيم قياساً على أوضاع آدابهم، وهنا تكمن خطورة هذا التقسيم، كما أشار حسين الواد إلى الآلية التي اعتمدها المستشرقون في هذا المنهج، حين قال: "لذلك فإن عصور التاريخ السياسي الراقية هي أيضاً عصور تاريخ الأدب الراقية، وعصور التاريخ السياسي المنحطة هي كذلك عصور تاريخ الأدب المنحطة. ولذلك أيضاً فإن حدود عصور التاريخ السياسي هي حدود عصور التاريخ الأدبي".⁶ وسنحاول تقصي هذه الحقيقة من عدمها، ونتبين كيف أسهمت

⁴ مصطفى صادق الرافعي، (1421_2000)، تاريخ آداب العرب، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،

لبنان، ص18.

⁵ حسين الواد، 1980، في تاريخ الأدب: مفاهيم ومناهج، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تونس،

ص140.

⁶ المرجع السابق نفسه، ص 141.

هذه الظاهرة في توجيه الحركة الأدبية والنقدية الوجهة التي أدت إلى إهمال عصور كاملة، ولأنها لم تكن راقية سياسياً فقد عدت غير راقية أدبياً.

3.1-: روادها:

لقد" عني عدد كبير من المستشرقين منذ مرحلة مبكرة من مراحل الاستشراق بوضع تاريخ للأدب العربي على نسق تواريخ الآداب في لغاتهم ، وبخاصة بعد أن توفرت لديهم النصوص الشعرية والنثرية التي أسهم في تحقيقها ونشرها أجيال متلاحقة من المستشرقين"⁷ وحاولنا إضاءة هذا البحث انطلاقاً من عرضنا لأبرز المستشرقين، الذين خاضوا في هذا التقسيم، مركزين على الألماني بروكلمان، والإنجليزي نيكلسون، والإيطالي ناليانو حتى نعطي نظرة أكثر شمولية وموضوعية للنظرة الاستشراقية.

كارل بروكلمان:(1868م - 1956م)

و" لقد حاول علماء الاستشراق أن يحيطوا بالأدب العربي إحاطة كاملة فيحثوا في كل ما يتعلق به معتبرين تاريخه أساساً لذلك. ومن هنا واجهوا معضلة تأريخه ونشأته وتكوينه ومنزلته وتطوره ، وأرادوا أن يحلوها، ولكي يقوموا بذلك كان عليهم أن يبدؤوا دراساتهم للأدب العربي على أساس جديد و هكذا ذهبوا فقسّموا هذا الأدب إلى عصور."⁸ ويعد المستشرق الألماني كارل بروكلمان من الرواد الأوائل في هذا التقسيم، ففي كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي صنفه في خمسة مجلدات كاملة، حاول تقسيم الأدب العربي إلى خمسة عصور أساسية هي :

1- عصر ما قبل الإسلام، ويبدأ من نقطة لا يمكن تحديدها الآن حتى ظهور الإسلام.

2 - عصر ظهور الإسلام حتى نهاية الأمويين عام 750م.

3 - عصر الدولة العباسية حتى نهايتها على أيدي المغول عام 1258م.

4 - عصر ما بعد سقوط بغداد حتى مجيء بونابرت إلى مصر عام 1798م.

5 - عصر البعث الجديد في القرن الماضي حتى العصر الحاضر."⁹

⁷فاجنر إيفاد، تر: سعيد حسن بحيري، (1428_2008)، أسس الشعر العربي القديم، ط1، مؤسسة

المختار للنشر والتوزيع، مدينة النصر القاهرة، ص7.

⁸أحمد سمائلوفيتش، (1418_1998)، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، (د.ط)، دار

الفكر العربي، مدينة النصر، القاهرة، ص564.

⁹المرجع السابق، ص 564، 565.

أما الأمر الذي أدى بهم إلى الضم والفصل بين عصريين هو المنهج التاريخي الذي يفرض على المؤرخ ربط الظاهرة الأدبية وتطورها بالتقلبات السياسية، والملاحظ أن أغلب التسميات لتلك العصور قد استلهمها المؤرخون من الصراعات السياسية التي كانت تحدث آنذاك مثال على ذلك (العصر الإسلامي، والأموي، والعباسي...) وهي في مجملها تسميات سياسية أكثر منها أدبية، فإذا صلحت هذه التسميات أن تكون تاريخية، فهي غير صالحة لأن تكون أدبية. "إن عدم التطابق بين العصور الأدبية والعصور السياسية قد اضطر المؤرخين إلى جعل عصريين سياسيين أو أكثر عصرا أدبيا واحدا تارة، وإلى جعل العصر السياسي الواحد عصورا أدبية عدة تارة أخرى."¹⁰

"والخلاصة فإن بروكلمان قد طبق على تاريخ الأدب التقسيمات التي تحتل النقد في بعض النواحي وهي ذاتها التي اعتمد عليها المؤرخون، دون أن يذكر في الوقت نفسه أن ليس هناك صلة بين الحوادث التاريخية والوقائع الأدبية"¹¹

رينولد نيكلسون : (1868 م – 1945 م)

ويذهب المستشرق الإنجليزي نيكلسون في قسمته للعصور الأدبية مذهبا مخالفا لما ذهب إليه بروكلمان، من حيث عدد العصور وأسماؤها فهو في كتابه (تاريخ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام) "يقسم تاريخ الأدب العربي إلى ستة عصور رئيسة وهي:

- 1 – عصر ما قبل الإسلام ويبدأ من نقطة زمنية يصعب تحديدها حتى ظهور الإسلام.
- 2 – عصر محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم.
- 3 – عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية.
- 4 – عصر الدولة العباسية وخلفائها.
- 5 – عصر العرب في أوروبا ودورهم.
- 6 – عصر ما بعد الفتح المغولي حتى عصرنا الحاضر."¹²

¹⁰ حسين الواد، 1980، في تاريخ الأدب: مفاهيم ومناهج، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تونس، ص146.

¹¹ ريجيس بلاشير، تر: إبراهيم الكيلاني، 1956، تاريخ الأدب العربي، ج1، (د.ط)، دار الفكر، دمشق، ص12.

¹² أحمد سمايلوفيتش، (1418_1998)، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، (د.ط)، دار الفكر العربي، مدينة النصر، القاهرة، ص565.

انطلاقاً من هذا التقسيم، نرى أن نيكلسون قد حاول توسيع تقسيماته في بعض العصور بينما يضيق هذا التقسيم في عصور أخرى، فإذا أخذنا عصر صدر الإسلام نراه يقسمه إلى فترتين، الأولى يسميها محمد والقرآن، والثانية بعصر الخلفاء والدولة الأموية، وهذا التقسيم يعود في أصله إلى الصراعات الطائفية التي وقعت بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم حول الخلافة، فإذا كان تقسيم العصور أدبيا في هذه المرحلة، فلماذا يضم عصر الخلفاء الراشدين إلى عصر الدولة الأموية؟ ونحن نعلم جيدا أن هذه الحقبة قد رجعت إليها العصبية القبلية في ثوبها الجديد الموسوم بالنقائض هذا من جهة، ومن جهة أخرى ضم نيكلسون عصر الدول المتتابعة التي يقصد بها العصرين المملوكي والعثماني، وقد سماه عصر الفتح المغولي، وهذه التسمية في حد ذاتها تحمل بين طياتها الكثير من العداء للإسلام، لأن هذه الحقبة اعتبرها بعض الدارسين بفترة أفول الحضارة الإسلامية التي امتدت عبر قرون طويلة من الزمن.

كارلو نلينو: (1872 م – 1938 م)

يبدو أن المستشرق الإيطالي نلينو في كتابه (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية)، قد وافق نيكلسون في تقسيمه من حيث عدد العصور وخالفه في تسميتها كما سيأتي بيانه:

- 1- "العصر الجاهلي مبتدئا بزمن يستحيل تحديده حتى ظهور الإسلام.
- 2 - العصر العربي الإسلامي مبتدئا بظهور الإسلام ومنتهيا بسقوط الدولة الأموية عام 750م.
- 3 - العصر العباسي الأول يستمر من سقوط الأمويين حتى عام 1058م.
- 4 - العصر العباسي الثاني ويبدأ من عام 1058م، ويستمر حتى سقوط بغداد في أيدي المغول عام 1258م.
- 5 - عصر الانحطاط ويبدأ من عام 1258م حتى عام 1805م.
- 6 - عصر البعث الجديد ويبدأ من جلوس محمد علي بك على عرش مصر عام 1805م ويستمر حتى الآن.¹³

¹³ المرجع السابق، ص 565.

والملاحظ أن نلينو فصل في تقسيماته أكثر من غيره من المستشرقين السابقين، فقد ضبط تواريخ بداية ونهاية كل عصر، وبالرغم من أنه قد سار في دراسته لتاريخ الآداب العربية على الطريقة التقليدية المعروفة المعتمدة على التاريخ السياسي، فإنه قد قرر صراحة فساد هذا التقسيم قائلاً: "إن هذه الحدود ليست إلا حدوداً صناعية اصطلاحية ... فإن عصراً ما سواء من التاريخ السياسي أم تاريخ الآداب والعلوم لا يحصر في مواقيت معينة بدقة."¹⁴

2/التقسيم العربي للعصور الأدبية بين التبعية والرفض:

بعد عرضنا لآراء بعض المستشرقين حول تقسيم العصور الأدبية وفق الترتيب الزمني مستندين في ذلك لبعض الأحداث السياسية والاجتماعية، سنحاول في هذا المطلب مناقشة انعكاسات هذا المنهج على الحركة التأليفية العربية.

1.2-تاريخ آداب اللغة العربية (جرجي زيدان 1861م – 1914 م)

يعد جرجي زيدان من بين أبرز المؤرخين العرب الذين تناولوا تاريخ آداب العرب في إطار التقسيم الزمني، مقتفياً بذلك أثر المستشرقين الذين حاولوا ربط عصور الأدب العربي بتاريخها السياسي، وهذا ما أشار إليه زيدان في مقدمة كتابه : "ترددنا كثيراً في الخطة التي نتخذها في تقسيم هذا الكتاب بين أن نقسمه حسب العلوم أو حسب الأعصر"¹⁵ ثم بعد أن وضح الفرق بين القسمتين، صرح في آخر قوله عن المنهج الذي رآه مناسباً للسير وفقه في كتابه، إذ يقول: "أما قسمته حسب الأعصر فيراد بها الكلام عن أحوال العلوم معاً في كل عصر على حدة . وهذا ما اخترناه."¹⁶

لكن الملاحظ في المقدمة أن جرجي زيدان لم يوضح للقارئ سبب اختياره منهج تقسيم كتابه حسب العصور على منهج تقسيمه حسب العلوم، بل وضح فقط أسباب تقسيم كل عصر من العصور، فمثلاً في العصر الإسلامي يذكر أن السبب في تقسيمه إلى أعصر

¹⁴ مصطفى هدار، 1963، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، (د.ط.)، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، ص18.

¹⁵ جرجي زيدان، 2012، تاريخ آداب اللغة العربية، (د.ط.)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة مصر، ص16.

¹⁶ المرجع السابق، ص 16.

هو الانقلابات السياسية، أو تناسب مراحل الانقلابات السياسية والاجتماعية وأثرها على الحركة الأدبية وهكذا سار الأمر مع بقية العصور الأخرى مبررا في كل مرة سبب تقسيمه لكل واحد منها.

2.2- تاريخ الأدب العربي (أحمد حسن الزيات 1885م – 1968م)

أما كتاب تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات وهو أيضا من أضخم الكتب العربية التي أرخت لتاريخ الأدب العربي عبر عصوره المتعاقبة بداية من العصر الجاهلي وانتهاء عند العصر الحديث، " وقد جاء كتاب الزيات في خمسة أبواب، تناول في الأول منها الأدب في العصر الجاهلي، وأرخ في الثاني لعصر صدر الإسلام والدولة الأموية ، وتناول في الثالث العصر العباسي ، أما الرابع فخصصه للأدب في العصر التركي وأما الخامس فأرخ به للأدب في العصر الحديث ¹⁷ ووفقاً لما أشار إليه حسين الواد في كتابه (تاريخ الأدب) فإن ما يلاحظه القارئ لكتاب الزيات سيلمح انتقالا غير مبرر من عصر إلى عصر آخر، وقد أعطى مثالا على ذلك بالانتقال الذي لاحظته بين العصرين الأموي والعباسي دون تمهيد بينهما، وهذا هو الذي أطلق عليه حسين الواد بالفراغ بين العصور، الذي يجعل هذا الانتقال غامضا شديداً الغموض. إذ وبالرغم من كثرة المؤلفين العرب الذين نهجوا منهج أساتذتهم المستشرقين في تقسيم العصور الأدبية، إلا أن بعضاً منهم كان متفطنا للمسار الذي سيؤول إليه تاريخ الأدب العربي ووجهته، بل وخطورة هذا التقسيم خاصة بعد أن اقترن بتياراته السياسية وتحولاته الاجتماعية التي سنرى وبالحالها على الحركة الأدبية فيما بعد، ومن الذين أدركوا خطورة هذا التقسيم إضافة إلى الراجعي نجد طه حسين، فنظرا لتأثره الكبير بالمستشرقين واستنباطه للعديد من أحكامه النقدية منهم، وانطلاقاً من احتكاكه المباشر بهم، إلا أننا نراه قد أنكر على مؤرخي الأدب نعت العصر العباسي الثاني بعصر الانحطاط الأدبي نتيجة لانحطاطه السياسي، يقول: " ولعمري إن عصراً ينبغ فيه من الشعراء الرضي والمتنبي وأبو العلاء ، ومن الكتاب ابن العميد وابن عباد والصابي ، ومن الفلاسفة الفارابي وابن سينا وابن لوقا ، ومن الأدباء أبو هلال وابن المرزبان والأمدي والجرجاني ، ومن النحويين ابن خالويه وابن جني وأبو علي الفارسي

¹⁷ حسين الواد، 1980، في تاريخ الأدب: مفاهيم ومناهج، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

والسيرافي - عصر ينبغ فيه هؤلاء وأمثالهم من المؤرخين والجغرافيين والفلكيين لخلق أن يكون عصر رقي ونهضة لا عصر ضعف وانحطاط في العلوم والآداب.¹⁸

وإن اختلف صراحة في إطلاق تلك التسمية على العصر العباسي الثاني، فإنهم لم يختلفوا في تسمية الحقبة الممتدة من سقوط بغداد على أيدي التتار إلى غاية عصر النهضة التي يؤرخ له بحملة نابليون على مصر سنة 1798م بعصر الانحطاط، وتقسيم تاريخ الأدب العربي إلى عصر قديم وعصر وسيط وعصر نهضة هو مقابل لتقسيم العصور عندهم، فالعصر الوسيط أو عصر الظلام الذي عاشته أوروبا في زمن الحكم الكنسي، قد وجد مرادفاً له وهو عصر الانحطاط عندنا، وهذا قياس خاطئ لأن هذه الحقبة قد ألفت فيها مقدمة ابن خلدون ونسجت فيها أشعار البوصيري وابن نباتة، وفي النثر ظهر ابن خلكان والنويري وابن منظور وقلقشندي، وفي الفقه ابن تيمية والسيوطي والصفدي وغيرهم، فضلاً على العلوم الأخرى كالرياضيات والفلك والهندسة والطب وغيرها.

وفيما يلي جدول توضيحي لأشهر التقسيمات للعصور الأدبية بين المستشرقين والعرب¹⁹

¹⁸ شكري فيصل، 1986، مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي: عرض ونقد واقتراح، ط2، دار العلم

للملايين، ص54.

¹⁹ حسين الواد، 1980، في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، المؤسسة العربية لدراسات والنشر، تونس،

ط1، ص143.

جدول توضيحي لتقسيمات أشهر المستشرقين والنقاد العرب للعصور الأدبية

3/ في ميزان النقد:

إن هذا التقسيم الذي ارتضاه المستشرقون وتبعهم فيه عدد كبير من المؤرخين العرب الذين انصدموا في أثناء تقسيماتهم هذه بالعديد من الإشكاليات المنهجية ، بسبب

عدم اتفاقهم على عدد العصور و أسمائها، ولا على الحدود الفاصلة بين عصر وآخر، و عدم وعيهم كذلك بزلات منهج المستشرقين وخطورته على تاريخ الأدب العربي قد أثمر لنا هذه التبعية، وهذه الضبابية التي أحاطت بتلك التسميات قد جعلت قسما من أدبنا منحولا مشكوكا في صحته وآخر ضعيفا والباقي منه منحطا لا ينظر إليه ولا يعتد به، في حين نبغ فيه شعراء وأدباء وفلاسفة وعلماء لا نظير لهم في العصور السابقة، ولم يكن لهم مثيل حتى في أوروبا.

إن هذه القراءة التاريخية التي غالت في تمجيدها السياسي على حساب الأدبي، قد أثرت بشكل كبير في تغيير وجهة دراسة التاريخ الأدبي، فبدل الانطلاق من تاريخ الأفراد ومن ثم ربط ذلك التاريخ ببواعثه السياسية والاجتماعية، كانت الانطلاقة من تاريخ الجماعات،

" كما أن انتهاء فترة سياسية لا يعني بالضرورة انتهاء الموجة الأدبية وانقراض خصائصها. مما لا شك فيه: أن هذه التبعية أشد خطرا على الأدب من المطابقة لأنها تحمل الدارس الأدبي على أن يأخذ نفسه سلفا ببعض الآراء ، بل هي تزوده بهذه الآراء من غير أن يحس بتسللها إليه وسلطانها عليه "²⁰، فسمي عصر ما قبل الإسلام بالجاهلي في حين هو مصدر الأدب وعصر أبلغ شعراء العرب، وحكم على العصر الإسلامي بالضعف ووسم العصر المملوكي والعثماني بعصر الانحطاط." وجناية هذا التقسيم واضحة لأن هذا الذي يسمونه بعصر الانحطاط قد ازدهرت فيه الثقافة ازدهارا عظيما ونبع الكثير من رجالات الفكر والثقافة."²¹

والأمر الآخر هو أن هذا التقسيم الذي أخل بميزان التاريخ الأدبي عند العرب لم يقف عند هذا الحد، بل أدى إلى مسألة خطيرة، وهي مسألة إسقاط المستشرقين لهذه الطريقة الغربية على الآداب العربية قياسا على آدابهم، فخضوع هذا التقسيم لصنيع هؤلاء قد أدى إلى تلك الأحكام النقدية الشمولية الجائرة في حق بعض العصور وإلى تلك النظرة الاختزالية للبعض الآخر منها ، فالنظرة الشمولية تمثلت في دمج عصر أو عصرين

²⁰ حبيب مونسي، 2007، نقد النقد المنجز العربي، دراسة في المناهج، (د.ط)، منشورات دار الأديب، حي باهي اعمر السانيا، وهران، ص 57.

²¹ عدنان عبيد العلي، (1421هـ-2000م)، الأدب العربي بين الدلالة والتاريخ، (د.ط)، منشورات جامعة آل البيت، ص 83، 82.

لتضعهما في خانة واحدة وفي سيرورة مستمرة مثل الحكم على الشعر الإسلامي والأموي ووضعهما في خانة واحدة، وأما النظرة الاختزالية فتمثلت في الحكم على عصر يمتد من 1258م إلى 1798م أي ما يقارب ستة قرون من الزمن بالانحطاط، ليصل إلى نتيجة مفادها أن أدب هذه الفترة سيكون واحداً على نسق واحد من حيث مظهره وجوهره ونوعه وقيّمته، فلا حاجة للبحث العميق في خصائص الشعر بين هذه الأعصر لأنها واحدة.

خاتمة

طرحت هذه الدراسة قضية جوهرية وهي نظرة الخطاب الاستشراقي لتاريخ الأدب العربي عبر عصوره المتعاقبة، وقد خلُصت إلى مجموعة من النتائج أبرزها: إن الاستشراق هو مرحلة مهمة من تاريخ الحضارة الإسلامية عموماً والعربية تحديداً، وقد أثمرت القراءة الاستشراقية للموروث الأدبي كمّاً ضخماً من الكتب التي أُعيد بعثها من جديد عن طريق التحقيق والترجمة والتأليف، فهم الذين كتبوا وحققوا وترجموا وصنفوا الكثير من كنوز تراثنا القيم التي كانت تنتظر من ينفذ الغبار عليها ويعيد إحياءها، ولولا إخلاص وسعي المنصفين منهم في جمعها وطبعها لم تكن لتصل إلينا في صورتها التي هي عليها اليوم.

- إن محاولة قراءة المستشرقين لتراثنا الأدبي لم تسلم هي الأخرى من بعض العيوب التي مسّت هذا التراث في جوهره، منها قضية التقسيم هذه التي اعتبرناها قسمة ضيزى تهدف في باطنها إلى حصر ظاهرة التطور الأدبي بالتغيرات السياسية والاجتماعية، بل واعتبار أن الثانية سببا في الأولى.

- عدم الاطمئنان لهذه القراءة الاستشراقية في جميع النتائج التي توصلت إليها بعد قراءة هذا التراث، خاصة وأننا أهملنا تتبع نتاج عصور برمتها انطلاقاً من تسميتها (عصر الانحطاط) والأدهى والأمر، هو إدراج هذه التقسيمات في مناهجنا التعليمية حتى ترسّخ في أذهان طلابنا أن العصر الذي نبغ فيه ابن خلدون والبوصيري وابن نباتة وغيرهم هو عصر انحطاط فنمر عليه مرور الكرام.

- إن مسؤولية اليوم هي على عاتقنا جميعاً؛ لأننا لم نعد غريبة هذا التراث، بل قبلناه مثلما استلمناه منهم بعيوبه وسلبياته غاضين الطرف عن الشوائب التي علقّت به، وكأن الذي قام بتلك الجهود كلها هو واحد منا وفيّنا.

- إن حركة التأليف التي خاضها المستشرقون في تأريخهم لأدبنا العربي كان جديرا بأن نناقش أسبابها قبل الاطمئنان لنتائجها، بل كان لابد أن نتنبه لمنطلقاتها ونحاول إدراك أهدافها وغاياتها، لأن منهج التقسيم هذا هو الذي حوّل وجهتنا في تعاملنا مع تراثنا، وما زلنا نحصد آثاره إلى اليوم بعد اصطبأغه بالصبغة الرسمية في مناهجنا التعليمية.

المراجع:

1. مصطفى صادق الرافعي، (1421_ 2000)، تاريخ آداب العرب، ج1، ط1، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان.
2. جرجي زيدان، 2012، تاريخ آداب اللغة العربية، (د.ط)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
3. ريجيس بلاشير، تر: إبراهيم الكيلاني، 1956، تاريخ الأدب العربي، ج1، (د.ط)، دار الفكر، دمشق.
4. فاجنر إيفاد، تر: سعيد حسن بحيري، (1428_2008)، أسس الشعر العربي القديم ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مدينة النصر، القاهرة.
5. أحمد سمايلوفيتش، (1418_1998)، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، (د.ط)، دار الفكر العربي، مدينة النصر، القاهرة.
6. حسين الواد، 1980، في تاريخ الأدب: مفاهيم ومناهج، ط1، المؤسسة العربية للدراسات النشرتونس.
7. مصطفى هدارة، 1963، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، (د.ط)، دار المعارف كورنيش النيل، القاهرة.
8. شكري فيصل، 1986، مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي: عرض ونقد واقتراح، ط2، دار العلم للملايين، بيروت.
9. حبيب مونس، 2007، نقد النقد المنجز العربي، دراسة في المناهج، (د.ط)، منشورات دار الأديب، حي باهي اعمر الساني، وهران.
10. عدنان عبيد العلي، (1421هـ-2000م)، الأدب العربي بين الدلالة والتاريخ، (د.ط)، منشورات جامعة آل البيت.

